

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾
[للمؤمنون: 8 - 11]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الصِّفَاتُ مِنَ الْأَمَانَاتِ الْعَظِيمَةِ؛ أَتْبَعَهُ عَمومَهَا فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ﴾؛ سَوَاءٌ أَكَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ؛ كَالصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَغَيْرِهِمَا، أَمْ فِي الْمَعَانِي الْبَاطِنَةِ؛ كَالْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ، أَمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَلْقِ كَالْوَدَائِعِ وَالْبِضَائِعِ^(١).

أوصافُ المؤمنين
المُفْلِحِينَ
توصلهم إلى
الفردوس

وَالْعَطْفُ هُنَا بِمُجْمَلِهِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، مِمَّا يُؤْصَلُ صِيَانَةُ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ فِي نَفْسِهِ لِيُحْسِنَ التَّعَامُلَ مَعَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لِتَكْتَمِلَ الْمَنْظُومَةُ الْبَشَرِيَّةُ وَالْوَحْدَةُ الْمَوْضُوعِيَّةُ لِكُلِّ الْمَجْتَمَعَاتِ فِي الْمَنْظُورِ الْقُرْآنِيِّ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَمَوْقِعُ الْحَدِيثِ عَنِ الْأَمَانَةِ وَالْعَهْدِ مِمَّا قَبْلَهُ مَوْقِعٌ لَطِيفٌ وَسَخِيٌّ جَدًّا؛ لِأَنَّهُ يُفْهِمُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْفَرْدِيَّةَ السَّابِقَ ذَكَرَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ الْفَالِحِينَ إِنَّمَا تُتَّبِعُ صِفَاتٍ جَمَاعِيَّةً؛ فَلَهَا أَثَرُهَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْمُؤْمِنِينَ.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿لِأَمْنَتِهِمْ﴾: (أَمْن) أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُمَا الْأَمَانَةُ الَّتِي هِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَالْآخَرُ التَّصَدِيقُ⁽²⁾، أَمِنْ يَأْمَنُ أَمْنًا، وَأَمَانًا وَأَمَنَةً بَفَتْحَتَيْنِ، فَهُوَ أَمْنٌ، فَهَذِهِ فِي الْأَصْلِ مَصَادِرُ، وَيُجْعَلُ الْأَمَانُ تَارَةً اسْمًا لِلْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ

(1) الْبِقَاعِيُّ، نَظَّمَ الدُّرَّ: 110 - 109 / 13.

(2) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَائِيسُ اللُّغَةِ: (أَمْن).

في الأَمْن، وتارةً اسْمًا لما يُؤْمَنُ عليه الإنسان؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخَوَّنُوا أَمْنَتِيكُمْ﴾ [الأنفال: 27]؛ أي: ما اتَّمتَّمتُّم عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، وأصلُ الأَمْن: طُمَأْنِينَةُ النَّفْسِ وزوالُ الخَوْفِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125⁽¹⁾]، ومعنى قوله تعالى: ﴿هُم لِأَمْنَتِهِمْ﴾؛ أي: أمانات النَّاسِ، والأشياء المؤتمنون عليها والمعاهدون عليها⁽²⁾.

(2) ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾: عَهْدَ فلانٍ إلى فلانٍ بَعْدَ؛ أي: ألقى إليه العهدَ وأوصاهُ بحفظه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ [طه: 115]، والعَهْدُ: حفظُ الشيءِ ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّيَ الموثَّقُ الَّذي يلزمُ مراعاته عَهْدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنََّّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34⁽³⁾]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾؛ أي: العقودُ الَّتِي عاقَدوا النَّاسُ عليها⁽⁴⁾.

(3) ﴿رَاعُونَ﴾: (رعى) أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا المُرَاقَبَةُ والحِفْظُ، والآخرُ الرُّجُوعُ⁽⁵⁾، رعى يَرعى رَعْيًا ورِعايَةً⁽⁶⁾، وأصلُ الرَّعْيِ في اللُّغة: القيامُ على إصلاحِ ما يتولاهُ من كلِّ شيء، تقول: الإمامُ يَرعى رعيَّته، والقيِّمُ بالغَنَمِ يَرعى غَنَمَهُ، وفلانٌ يَرعى ما بينَهُ وبينَ فلانٍ؛ أي: يقومُ على إصلاحِهِ⁽⁷⁾، ومن معانيها: رعايَةُ حدودِ الله بالمحافظة عليها، قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: 27]، ومعنى قوله تعالى: ﴿رَاعُونَ﴾؛ أي: حافظون⁽⁸⁾.

(4) ﴿الْوَارِثُونَ﴾: (ورث) كلمةٌ واحدةٌ، هي الوَرِثُ، والميراثُ أصلُهُ أن يكونَ الشيءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصِيرُ إلى آخرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ⁽⁹⁾، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: 176]، وقال ﷺ: ﴿وَنَجْعَلُهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصاص: 5]، ومعنى قوله تعالى:

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدَات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/ 18، والرمْخَشَرِيُّ، الكَشَاف: 27/ 3.

(3) الرَّاغِب، المُفْرَدَات، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 5/ 18.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رعى).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رعى).

(7) الرَّجَّاح، معاني القرآن: 7/ 6.

(8) الشُّوكَانِي، فتح القدير: 546/ 3.

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).

﴿الْوَارِثُونَ﴾؛ أي: ورثوا من أهل النار منازلهم من الجنة⁽¹⁾، أو بمعنى ورثوا منازلهم التي بُنيت لهم في الجنة⁽²⁾.

(5) ﴿الْفِرْدَوْسُ﴾: الفِرْدَوْسُ: جَنَّةٌ ذاتُ كَرَمٍ؛ أي: البُستانُ الَّذي فيه الأَعْنَابُ، مُفْرَدَسٌ؛ أي: مُعَرَّشٌ⁽³⁾، والفِرْدَوْسُ في كلام العرب: الشَّجَرُ الْمُتَلَفُّ، والأغْلَبُ عليه العِنَبُ، وجمعه الفِرَاديسُ، والفِرْدَوْسُ هو البستانُ بِالرُّومِيَّةِ⁽⁴⁾، واختاره الرَّجَّاجُ فقال: هو بِالرُّومِيَّةِ مَنْقُولٌ إلى لفظِ العَرَبِيَّةِ⁽⁵⁾، وأنشدَ لِحَسَّانَ:

وإنَّ ثَوَابَ اللَّهِ كُلِّ مُوحِّدٍ *** جَنَّاتٍ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُتَلَدُ⁽⁶⁾
وحقيقته أنَّه البستانُ الَّذي يجمعُ كُلَّ ما يكونُ في البساتين⁽⁷⁾،
ومعنى قوله تعالى: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾: أعلى الجنة وأوسطها⁽⁸⁾.

❁ المعنى الإجمالي:

يتابعُ النِّظْمُ القرآنيَّ الكريمَ حديثَه عن صفاتِ المؤمنين؛ فيذكر من صفاتهم: أنَّهم إذا اتَّمتُّوا لم يخونوا؛ بل يُؤدُّون الأماناتِ إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوَفَّوا، وهم يواظبون على صلواتهم في موافقيتها وعلى هيئتها المشروعة، ولما وصفهم اللهُ تعالى بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة، بيَّن جزاءهم الحَسَنَ يومَ القيامة بأنَّهم هم الأحقَّاء بأنَّ يُسمَّوا بأنَّهم الوارثون دون غيرهم، ثمَّ بيَّن الموروث بقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهو أوسطُ الجنة وأعلىها، وهم في

أداء الأمانات
والعهود،
والحفاظَّة على
الصلوات،
سبيلٌ لدخول
أعلى الجنَّات

(1) الرَّجَّاجُ، معاني القرآن: 6/4.

(2) الشُّوكاني، فتح القدير: 646/3.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (فردوس)، وابن جرير، جامع البيان: 36/16.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 211/5، والملاوردي، التُّكْتُ والعيون: 348/3.

(5) الرَّجَّاجُ، معاني القرآن: 315/3.

(6) ديوان حسان، ص: 93.

(7) الرَّجَّاجُ، معاني القرآن: 315/3.

(8) الشُّوكاني، فتح القدير: 546/3، ويُؤيِّده قولُ رسولِ الله ﷺ: «الفردوس ربوة الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأحسنها، وفوقه عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس»، ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2790، 3247).

هذه المنزلة الرفيعة دائمون، وهي أفضلها منزلاً، هم فيها خالدون، لا ينقطع نعيمهم ولا يزول، ولا يخرجون منها ولا يموتون⁽¹⁾. وترشد الآيات الكريمة إلى أن جميع ما أوجبه الله على عباده أمانة، وهو لفظ عام يتناول جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، فعلى العبد حفظها بالقيام التام بها؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، وكذلك العهد يشمل العهد الذي بين العباد وبين ربهم، والعهد الذي بينهم وبين العباد؛ وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

وترشد إلى أن الله مدح المؤمنين بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمريين معاً، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنه مذموم ناقص⁽²⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نكتة عطف الآية بالواو:

جاء عطف قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ على ما تقدّم من صفات المؤمنين، بالتدرج من المحافظة على النفس إلى التعاون الاجتماعي إلى إقامة الأسرة على أساس العدل، والمحافظة على النسل، ثم إلى بيان الأسس التي يقوم عليها التعامل الإنساني، وهو الأمانة⁽³⁾، وذكر الأمانة والعهد عقب أداء الزكاة خاصة؛ لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم الله عليهم بالمال، ولذلك سميت: حق الله، وحق المال، وحق المسكين⁽⁴⁾، وهذا من دلالات الاقتران.

الصفات
الإيمانية تكامل
فيما بينها
لتحقيق النظرة
الشمولية
الإنسانية

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 226، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 646.

(2) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 547.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5048.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 18.

غرض التعبير بالاسم الموصول:

صُدِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ بِاسْمِ الموصول (الَّذِينَ) لبيان سبب آخر من أسباب فلاح المؤمنين، ووجه آخر من وجوه ما يستحقون به هذا الثناء، فَعُرِّفُوا بِصِفَةٍ عَظِيمَةٍ هِيَ صِفَةُ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ مَعَ حِفْظِ الْعَهْدِ، وَعَدَمِ خِيَانَتِهِ⁽¹⁾.

الأمانة وحفظ
العهد سببان
عظيمان من
أسباب فلاح
المؤمنين

نكتة تكرار الاسم الموصول وصلته:

نُظِمَتِ الصِّفَاتُ مَعَ تَقْدِيمِ الاسْمِ الموصول وصلته على كل واحدة منها للثناء على المؤمنين بما يستحقونه، وفي إعادة الاسم الموصول مع صلته دون اكتفاءٍ بعطفِ صلةٍ على صلةٍ؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفَاتِ موجبةٌ للفلاح، فلا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَا يُفْلَحُونَ حَتَّى يَجْمَعُوا بَيْنَ مِضَامَيْنِ الصِّلَةِ كُلِّهَا فَحَسَبَ⁽²⁾.

صفات المؤمنين
محل ثناء،
موجبة للفلاح

نكتة الإظهار في مقام الإضمار:

أَظْهَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ الْمُحَدَّثُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ بَدَلَ أَنْ يَقُولَ: (يرعون أماناتهم وعهدهم)؛ وذلك لما في الإظهار - هنا - في مقام الإضمار من زيادةٍ تقريرٍ للخبر في ذهن السامع، بعد تشوُّفِهِ لِعَرَفَتِهِ وَالْوَقُوفِ عَلَى مِضمونِهِ⁽³⁾.

تقرير المؤمنين
على صفة رعاية
الأمانة والعهد

نكتة التعبير بالجملة الاسمية في الأمانة والعهد:

لَمْ يَصِفِ النَّظْمُ الْقِرَائِيُّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: (أَدَّوا الأمانات وارعوا العهود)، أَوْ بِقَوْلِهِ: (كانوا راعين للأمانات والعهود)؛ بَلْ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾؛ وذلك حَتَّى لَا يَفُوتَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ مِنْ ثَبَاتِ أَدَائِهِمْ لِلأماناتِ وَرِعَايَةِ الْعُهُودِ وَدَوَامِهِمْ عَلَيْهَا فِي حَيَاتِهِمْ، فَهَذَا الثَّبَاتُ فِي ذَيْنِكَ الصِّفَتَيْنِ لَا زَبَّ لَا

ثبات المؤمنين
للمُفْلِحِينَ فِي أَدَاءِ
الأمانات ورعاية
العهود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13، 17.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13، 17.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18.

يتخلف⁽¹⁾، وهذه الاسميّة تُذكر بنظائرها فيما سبق؛ وتوقع في أنفس المتلقين التعاضد والتناصر والتعاون الذي بين هاتيك الصفات في سياق تكوين رجل مؤمن فالح.

معنى اللام في ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾:

المؤمنون ذوو
قوة في رعاية
الأمانات
والعهود

اللام في قوله تعالى: ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾ لامُ التقوية لضعف العامل بالفرعية وبالتأخير عن معموله، وهذه التقوية من وجهين: تقديم المعمول، وكَوْن العامل اسماً⁽²⁾؛ أي: أثبت النظم الكريم اللام هنا تقويةً لاسم الفاعل ﴿رَاعُونَ﴾⁽³⁾.

توجيه القراءات في قوله: ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾:

الأمانات المنوطة
بالمؤمنين كثيرة
وأداؤها واجب

في قوله تعالى: ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾ قراءتان قرآنيّتان متواترتان⁽⁴⁾: الأولى: ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾ بالإفراد، وهي قراءة ابن كثير المكي، ووجه هذه القراءة أن الأمانة مصدرٌ واسمٌ جنس فيقع على الكثرة، وإن كان مفرداً في اللفظ، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ [الأنعام: 108] وجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: 63] ووجه الإفراد كذلك خفته، ويقويه أن بعده: ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ وهو مصدر⁽⁵⁾، والثانية: ﴿لَا مَنَنْتِهِمْ﴾، بالجمع، وهي قراءة الباقيين، ووجه القراءة بالجمع: أن المصدر إذا اختلف أجناسه وأنواعه جمع، والأمانات التي تلزم الناس مراعاتها كثيرة، فجمع لكثرتها، وقد أجمعوا على الجمع في قوله تعالى: ﴿أَن تَوَدُّواْ الْأَمْنَتَ﴾ [النساء: 58] لهذا المعنى⁽⁶⁾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10 / 18، 13.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 208 / 9.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 107 / 13.

(4) ابن مجاهد، السبعة، ص: 444، ومكي، التبصرة، ص: 269، والداني، التيسير، ص: 158، وابن الجزري، النشر: 328 / 2.

(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 85 / 2، والفارسي، الحجة: 288 / 5، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 483.

(6) مكي، الكشف: 125 / 2، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 147 / 2.

والأصل في المعنى من القراءتين هي قراءة الجمع؛ لأنها تُصوِّر حقيقة عدد ما اتَّئَمَّنَ عليه هؤلاء المؤمنون على الجملة؛ فهي كثيرة؛ على ما يُفْهَمُه الجمعُ، وهي مُمَيَّزَةٌ من جهة أدائهم هم لها؛ لأنها أُضيفت إليهم: ﴿لَأَمْنَتِيهِمْ﴾؛ فهو أداءٌ كامل قوي مُسْتَمَرٌّ ودائم على ما يُفْهَمُه معنى القلة؛ لأنَّ جمع المؤنَّث السَّالم من أوزان القِلَّة، أو ملحَق بأوزان القِلَّة، وأمَّا قراءة الأفراد؛ فقد جاءت على خلاف الأصل والظاهر أنها للدلالة على استواء أفراد أماناتهم في الرعاية والعناية والأداء والاهتمام وما جرى في هذا الطريق من المعنى؛ فأماناتهم كأمانة واحدة في كمال اقتدارهم على أداء تلك الأمانات المؤسَّس على كمال معرفتهم وعلمهم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [القمان: 28]، والحاصل أنَّهم بالغون كمالاً في كلِّ أمانة على جهة الاستقلال؛ وذلك فلاحٌ أيُّ فلاحٍ.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿لَأَمْنَتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَأَمْنَتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ على ﴿رَاعُونَ﴾ لمزيد الاهتمام بشأن الأمانة والعهد⁽¹⁾، وبيان ما لأداء الأمانة ورعاية العهد من آثار عظيمة في حياة الأفراد والمجتمعات الإنسانية، وفي هذا التقديم إيذانٌ بأنَّ للمؤمنين تعلقاً شديداً برعاية الأمانة والعهد؛ لأنَّ شأن الإضافة أن تُفيد شدة الاتصال بين المضاف والمُضاف إليه؛ لأنها على معنى لام الاختصاص⁽²⁾، ولذلك كان في التقديم إشعارٌ بأنَّ رعايتهم للأمانات والعهد مؤسَّسة على العلم بما ينبغي أن يكون تُجاه تلك الأمانات وذلك العهد؛ فهم لم يتعاملوا مع الأمانات والعهد تعاملًا عاديًا تقليديًا؛ وإنَّما تعاملوا معها ومع العهد

التَّنبِيْهُ عَلَى
أَهْمِيَّةِ رِعَايَةِ
الْأَمَانَةِ وَالْعَهْدِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيْر: 18/ 10، 13، 17.

معاملة خاصة؛ لأنّها مع العهد ذات موقع خاصّ وجليلٍ وخطيرٍ في بصائرهم؛ وذلك من شأن الكَمَلِ الفالحين.

غرض تقديم الأمانات على العهود:

الأمانات متنوعة
وأداؤها جميعها
واجب شرعي

قدّم النظم الكريم الأمانات على العهود في قوله تعالى: ﴿لَأْمَنَّتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾؛ لأنّ الأمانات كثيرةٌ تشمل ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى والأموال والأعيان، فهي متنوعةٌ جدًّا تضمّ حقوقَ الله على العباد، وحقوقَ العباد فيما بينهم، ورعاية ذلك كله أولى وأَوْقَى من رعاية فردٍ من أفرادِه وهو العهد، مع أنّه أعظم أفراد الأمانة ولذلك خصّه بالذكر، فحفظُ الأمانات كالتَّخْلِيَةِ، وحفظُ العهد كالتَّحْلِيَةِ⁽¹⁾، وعطفُ العهد على الأمانات من عطف الخاصّ على العامّ؛ وذلك الأصل في بيان أهمية الخاصّ وقيّمته.

فائدة جمع الأمانات وإفراد العهود:

الأمانات كثيرة
والعهد أهم
أفرادها

وردت الأمانة بصيغة الجمع، والعهد بالإفراد في قوله تعالى: ﴿لَأْمَنَّتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ وذلك باعتبار تعدّد أنواع الأمانة، وتعدّد القائمين عليها بالحفظِ تنصيبًا على العموم، والعهدُ فردٌ من أفرادِ الأمانة، جاء ذكرُه بعدها تخصيصًا له بالمنزلة العظيمة، وتبنيهاً على أنّه أهمُّ أفرادِ الأمانة؛ فالعهدُ ما سَمِيَ عهدًا إلاّ لأنّ الطَّرفَيْنِ يتحالفان بعد الله بأن يكون الله رقيبًا عليهما في ذلك لا يُفَيِّتُهُمُ المؤاخَذَةُ على تخلفه⁽²⁾.

نكتة إضافة الأمانات والعهود إلى ضمير (هم):

غاية الأمانات
والعهود من
صفات خلص
المؤمنين

أضاف النظم الكريم الأمانات والعهود إلى ضمير (هم) في قوله تعالى: ﴿لَأْمَنَّتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾؛ لأنّ رعايتهما من صفات المؤمنين المُتَحَقِّقِينَ بالنِّفَاحِ، فلا يحرصُ على رعايتهما إلاّ خلصُ المؤمنين، وخيانتُهُما من صفات المنافقين⁽³⁾.

(1) الألويسي، روح المعاني: 9/ 214.

(2) الألويسي، روح المعاني: 9/ 214، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 18.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5048.

نكتة التعبير بـ ﴿رَاعُونَ﴾ مائدة وصيغة:

أصل الرّعي في اللغة: القيام على إصلاح ما يتولاه من كل شيء⁽¹⁾، والرّاعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح؛ كراعي الغنم وراعي الرّعية، وراعي هذا الشيء؛ أي: مُتوليه وصاحبه⁽²⁾، وراعون في موقعها في قوله تعالى: ﴿لَأَمْنَتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾؛ أي: حافظون لحلفهم الذي يؤخذ عليهم، ولعقودهم التي عاقدوا الناس عليها⁽³⁾، فاستُعيرَ هذا المعنى في رعي الماشية لرعي الناس، فرعي الأمانة: حفظها، ولما كان الحفظ مقصوداً لأجل صاحبها كان ردّها إليه أولى من حفظها، ورعي العهد مجازاً؛ أي: ملاحظته عند كل مناسبة⁽⁴⁾.

وفي التعبير بهذه المادة على جهة الاستعارة التصريحية التبعية؛ لأنّ الكلمة على وزن فاعل؛ وهو من المشتقات، وفيها تنبيه على كمال أداء المؤمنين تلك الأمانات وذلك العهد؛ بإقبالهم بكلياتهم عليها وعلى العهد؛ معرفةً وأداءً ورعايةً وما جرى في هذا الطريق من المعنى، وصيغة ﴿رَاعُونَ﴾ تُفيد الثبات والديمومة على رعاية الأمانة والعهد، والمحافظة عليهما بشكل مستمر لا ينقطع.

فائدة عطف موضوع الصلاة وتكراره:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ثناءً على المؤمنين بالمحافظة على الصلوات؛ أي: بعدم إضاعته أو إضاعة بعضها، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِيهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، والصلاة والمحافظة عليها أمانة من الأمانات وعهد من العهود؛ بل هو أهم أمانة وأقوى عهد⁽⁵⁾، وتكرار ذكر الصلاة، وذكرها من

الثبات والمداومة
على رعاية
الأمانات
والعهود

إقامة الصلاة
والمحافظة عليها
أعظم أمانة
وعهد

(1) الرّجّاج، معاني القرآن: 6/7.

(2) الرّمخشري، الكشف: 3/27.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/18، والشوكاني، فتح القدير: 3/546.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/17.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/17.

بعد ذِكْرِ الأمانات والعهد يُشير إلى أَنَّ إقامة الصَّلَاة من الصِّفات
الأمّهات التي تُنتِج صفاتٍ أخرى، وتُقوِّي صفاتٍ أخرى.

غرض التعبير بالاسم الموصول:

عَبَّرَ النَّظْمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿وَالَّذِينَ﴾ في قوله تعالى:
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ لبيانِ صفةٍ من صفاتِ المؤمنين
هي سببٌ من أسبابِ فوزِهِم وفلاحِهِم الَّذِي صُدِّرتِ السُّورَةُ به: ﴿قَدْ
أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فاستحقُّوا به هذا الثَّناءَ وذلك المقام⁽¹⁾.

نكتة تكرار الاسم الموصول وصلته:

تَكَرَّرَ الاسمُ الموصولُ هنا كما سبق في صدر كلِّ صفةٍ للثَّناءِ على
المؤمنين بصفتِهِم تلك؛ فهم أهلُّ لها ولما ينتِجُ عنها من الفلاح،
وفي إعادةِ الاسمِ الموصولِ مع صلته دون اكْتفاءٍ بعطفِ صلةٍ على
صلة؛ للإشارةِ إلى أَنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفات - وهذه منها - موجبةٌ
للفلاح، فلا يُتَوَهَّمُ أنَّهم لا يُفلحون حتَّى يجمعوا بين مضامينِ
الصَّلَاةِ كُلِّها فحسب⁽²⁾.

نكتة التعبير بالجملة الاسميّة في المحافظة على الصَّلوات:

لم يأتِ بيانُ صفةِ ﴿هُم عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بصيغة:
(يُحَافِظُونَ على صلواتِهِم) أو: (كانوا يُحَافِظُونَ على صلواتِهِم)؛
وذلك لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ الواردةَ في الآيةِ الكريمةِ تعني الثَّباتَ؛
أي: ثباتَ المؤمنين على المحافظةِ على صلواتِهِم وأدائها على الوجهِ
الشَّرعيِّ المأمور به؛ أي: في أركانِها وواجباتِها وسُنَنِها وأوقاتها وكلِّ
ما يتعلَّقُ بمعنَى المحافظةِ عليها⁽³⁾.

الثَّناءُ على
للمؤمنين
بالمحافظةِ على
الصَّلَاةِ

صفةُ المحافظةِ
على الصَّلَاةِ من
أسبابِ فلاحِ
المؤمنين كسائر
الصِّفاتِ

ثباتُ المؤمنين في
محافظةِهم على
الصَّلواتِ

(1) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 18 / 18.

(2) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 18 / 10، 13، 17، 18.

(3) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 18 / 15، 18.

نكتة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾:

عبر سياق الآية بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾؛ لتمكّن المؤمنين من المحافظة على صلواتهم، وهذا يقتضي علو شأن الصلاة وعلو شأن من يحافظ عليها⁽¹⁾.

نكتة إضافة الصلاة إلى ضميرهم:

أضيفت الصلاة إلى ضمير (هم) في قوله: ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾؛ لأنهم الآتون بالصلاة وفروعها المختصون بها الحريصون عليها⁽²⁾، وكأنّها ملكٌ لهم لا يُفَرِّطون بها أبداً، وحقّ لهم على هذا الوجه أن يكونوا محلّاً لمدح الله لهم وثنائه الجليل عليهم، ومثّل هذه الإضافة تشبیر إلى أن كمال راحتهم في الصلاة؛ كما كان نبينا ﷺ يقول: "يا بلال، أقم الصلاة، أرخنا بها"⁽³⁾، وقال: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة"⁽⁴⁾.

فائدة تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾:

تقدّم الجار والمجرور ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ على قوله: ﴿يَحَافِظُونَ﴾ - والأصل تأخّره - للاهتمام الكبير الذي تحظى به الصلاة في كونها أهمّ فريضة في الإسلام بعد الشهادتين، وبيان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الصحيح شاهدٌ على ذلك، فهي سبيلٌ لتصحيح ما عداها إن حوفظ عليها، فإذا صلحت الصلاة؛ صلح سائر عمل المسلم، وإذا فسدت فسدت سائر عمله؛ فهي أمّ الفروض والعبادات، وفي هذا التقديم كذلك إيدانٌ بأن المؤمنين المُفْلِحِينَ حريصون كلّ الحرص على المحافظة على الصلوات حرصهم على أرواحهم، ولذلك شَيّد هذا الاتّصال اللصيق بين الصلاة والمحافظة عليها⁽⁵⁾.

تمكّن المؤمنين
من المحافظة
على صلواتهم

الصلاة
للمؤمنين
كالروح من
الجسد لا
يفرطون بها

الصلاة أهمّ
الفروض ورأس
العبادات

(1) البقاعي، نظم الدرر: 108 / 13.

(2) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 48 / 4.

(3) أبو داود، سنن أبي داود، برقم: (4985)، وصححه الألباني، صحيح الجامع، برقم: (7892).

(4) التّسائي، سنن التّسائي، برقم: (3940)، وأحمد، المسند، برقم: (12293).

(5) الألوسي، روح المعاني: 208 / 9.

الصلاة في
طبع المؤمنين
الصالحين ومن
ديدنهم

توجيه القراءات في قوله: ﴿صَلَّوْتِهِمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿عَلَى صَلَّوْتِهِمْ﴾، قراءتان متواترتان⁽¹⁾: الأولى: بالإنفراد ﴿صَلَّوْتِهِمْ﴾، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، والآخر؛ لأنَّ الصَّلَاةَ في الأصل مصدر؛ كالعمل والأمانة، والثَّانِيَةُ: بالجمع ﴿صَلَّوْتِهِمْ﴾، وهي قراءة الباقرين، والجمع؛ لأنَّه قد صار اسماً شرعياً لأنضمام ما لم يكن في أجل اللغة أن ينضم، وقراءة الجمع دلالة على إتيانهم كل صلاة في كل يوم وليلة؛ بل في أيامهم ولياليهم في حياتهم؛ لأنَّ صيغة: (صلوات) من صيغ الكثرة، وفي هذه الصيغة أيضاً: إيماء إلى أنَّهم يُصلُّون غير الصَّلَاة المفروضة من النوافل، ومن مثل الصلاة بالليل في الأسفار؛ بل إنَّهم يُحافظون على هاتيك الصَّلوات. ثم تأتي قراءة الأفراد؛ لتدلَّ على أنَّ صلواتهم كلها على كثرتها وتنوعها وتعددها وتغايرها كصلاة واحدة؛ في المعنى المذكور، وفي كمال اقتدارهم عليها في كل وقت ومكان.

نكتة التعبير بـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ مادةً وصيغةً:

حَفِظَ الشَّيْءَ حَفْظًا: حَرَسَهُ، والحفيظ: المحافظ، والتَّحَفُّظُ: التَّيَقُّظُ وقِلَّةُ الغفلة⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أي: يَتَّقِظُونَ لها فلا يَغْفُلُونَ عنها، وكأنَّهم يَحْرُسُونَهَا حتَّى لا تضيع منهم، فلا يُفَرِّطُونَ بها؛ بل يواظبون على أدائها على أكمل وجه، وصيغة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ جاءت فعلاً مضارعاً بعد سياقات رؤوس الآي السابقة التي جاءت أسماءً، وذلك لما في المحافظة على الصلاة من معاني التَّجَدُّد والتَّكْرُّر⁽³⁾، فالمحافظة على الصلاة دائم متجدد عند المؤمن بمحافظته على صفات المؤمنين الواردة في السُّورة على وجه الدوام.

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 444، والداني، التيسير، ص: 158، وابن الجزري، النشر: 2/ 328.

(2) الرَّاغِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(3) الألويسي، روح المعاني: 9/ 214.

نكتة الفصل بين الخشوع والمحافظة على الصلاة:

جاء الفصل بين قوله تعالى: ﴿هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وقوله هنا: ﴿هُم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ للإيدان بأن كلا منهما فضيلة مُستقلةٌ بنفسها، ولو قرنا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلةٌ واحدة⁽¹⁾، ثم إن معنى المحافظة أقرب وألصق بالأمانات والعهد؛ فلهذا جاءت في هذا الموقع.

الخشوع في
الصلاة فضيلة،
والمحافظة عليها
فضيلة أخرى

ومن فوائد ذكر الخشوع في الصلاة في السياق أولاً قبل المحافظة عليها؛ أنه تقدّم ذكر الخشوع في الصلاة في قوله تعالى: ﴿هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ على ذكر قوله تعالى: ﴿هُم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ للاهتمام به، فإن الصلاة بدونه كلاصلاً بالاجماع، والصلاة بلا خشوع جسد بلا روح، ويمكن أن يكون تقديم الخشوع باعتباره أهم خواص المحافظة على الصلاة، ثم جاء العموم بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿هُم عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾⁽²⁾.

بلادة الترتيب بين صفات المؤمنين المذكورة:

ابتدأ أوصاف المؤمنين المُفلحين بصفة الخشوع التي هي روح الصلاة، فإن تحققت فلاصحابها شأن عظيم ولسلاتهم مقام كريم، فبالخشوع اشتدت مراقبتهم لله، فامتثلوا واجتنبوا، وكلاهما من أعمال القلب، وقد كانت هذه صفتهم، فهم الذين يتورعون عن اللغو، وهو من سوء الخلق؛ فيعرضون عن قليله وكثيره، وهم يؤدّون زكاة أموالهم راغبين في إعطائها، مُعتبرين ذلك مَغْنَمًا وليس مَعْرَمًا، وهم وحدهم الذين يَسْتَمْسِكُونَ بالمحافظة على أعراضهم؛ فيترفعون عن حضيض مشابهة البهائم، وهم الذين يراعون العهود والأمانات؛ فيعطون ذا الحق حقه، ولا يتوانون ولا يُمسكون، وهم

كل صفة تُبنى
على سابقتها
وجميعها
يتحقق بتحقيق
الخشوع في
الصلاة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 50 - 51.

(2) الألوسي، روح المعاني: 9/ 215.

الَّذِينَ يَحْرَصُونَ عَلَىٰ آدَاءِ صَلَوَاتِهِمْ فِي أَوْقَاتِهَا، وَلَا يَغْفُلُونَ عَنْهَا
الْبَتَّةَ؛ بَلْ يَواظِبُونَ عَلَيْهَا مُسْتَمِرِّينَ غَيْرَ مُفْرَطِينَ⁽¹⁾.

فكلُّ صفةٍ من صفاتهم تُبْنَى على ما قبلها، وجميع الصفات مبنيةٌ
على أصلٍ واحدٍ؛ هو الإيمانُ بالله لا شريكَ له، وجميعها كذلك مبنيةٌ
ومُسْتندٌ إلى أوَّلَى هذه الصفات، وهي الخشوعُ في الصَّلَاةِ، فمَنْ
تحقَّقت فيه صفةُ الخشوعِ تحقَّقت فيه كلُّ تلك الصفات، وتحقَّقت
عنده مَلَكَتا الفعلِ والتَّركِ في المهمَّات، وهما منبعُ الأخلاقِ الفاضلةِ،
وفي تصديرِ الأوصافِ وختمِها بأمرِ الصَّلَاةِ تعظيمٌ لشأنِها؛ فهي
أقوى الفروضِ وأجلُّ العباداتِ⁽²⁾.

ويمكنُ أن يكونَ تكريرُ ذِكْرِ الصَّلَاةِ تنويهاً بها، ولا ريبَ أن في
ذلك ردًّا للعجزِ على الصِّدْرِ تحسِيناً للكلامِ الَّذِي ذُكرت فيه تلك
الصفات؛ لتزدادَ النَّفْسُ قَبُولاً لسماعِها ووعْيها فتتأسَّى بها⁽³⁾.

نكتةٌ فصلٍ قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾:

جاء فصلُ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ لبيانِ جزاءِ أولئك
المتَّصِفِينَ بهذه الصفات، وهمُ المؤمنون حقًّا، وهم الَّذِينَ يرثونَ
ويخلُفونَ غيرَهم وأنَّهم الباقيون، ولأنَّ كلَّ مُتَعِ الآخرةِ تكونَ لهم؛ لأنَّهم
أَبْقَى، وسجاياهم تجعلُهم أهلَ النِّعَمِ الباقي برحمةِ الله تعالى⁽⁴⁾،
وهذا الفصلُ وارِدٌ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّ إعادةَ ذِكْرِ
الصَّلَاةِ مِمَّا يضعُ في النَّفْسِ انتهاءَ هذا المقطعِ المعنوي الذي يسرد
صفات هؤلاء المؤمنين الفالحين؛ لأنَّها تعني ردَّ العجزِ على الصِّدْرِ،
وردُّ العجزِ على الصِّدْرِ في القرآنِ يردُّ عندَ انتهاءِ معاهدِ السُّورِ
ومقاطعتها؛ فكان ذلك مِمَّا يُحرِّكُ نفوسَ المُتلقِّينَ للسُّؤالِ عن جزاءِ

صفات المؤمنين
الرَّاسخة لهم
سببُ لوراة
النِّعَمِ المقيم

(1) أبو زهرة، زهرة التِّفاسير: 5050 / 10.

(2) الألويسي، روح المعاني: 215 / 9.

(3) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 18 / 18.

(4) أبو زهرة، زهرة التِّفاسير: 5050 / 10.

المُحَدَّث عنهم؛ فكان قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ جواباً عنه، وإذا كان ذلك استئنافاً ابتدائياً فإنَّ في غياب العاطف (الواو) إشعاراً بكمال جدارة المُحَدَّث عنهم بمضمون هذه الآية وما بعدها.

فائدة التعبير باسم الإشارة البعيد ﴿أُولَئِكَ﴾:

عَبَّرَ النَّظْمُ الكريمُ بِاسْمِ الإشارةِ الَّذِي يُفِيدُ البُعْدَ ﴿أُولَئِكَ﴾؛ للإشارةِ إلى المؤمنين باعتبارِ اتِّصافِهِم بما ذُكِرَ من الصِّفَاتِ لِلإِذَانِ بَعْلُو طَبَقَتِهِمْ، وَبُعْدِ دَرَجَتِهِمْ فِي الفَضْلِ وَالشَّرَفِ⁽¹⁾.

نكتة إثارة الإظهار على الإضمار:

أَثَرُ النَّظْمِ الكريمُ إظهارَ الإشارةِ إليهم بـ ﴿أُولَئِكَ هُمْ﴾؛ للإشعارِ بِامْتِيازِهِم بها عن غيرِهِمْ، وَنُزُولِهِمْ مَنْزِلَةَ المُشارِ إليهم حَسّاً⁽²⁾.

بلغة القصير ونوعه وعرضه في الآية:

حُفَّتِ الآيةُ القرآنيَّةُ مِنْ طَرَفَيْهَا بِاسْمِ الإشارةِ ﴿أُولَئِكَ﴾ الَّذِي يُفِيدُ التَّعْرِيفَ، وَ﴿الْوَارِثُونَ﴾ الْمُحَلَّى بِ (أَل) التَّعْرِيفِ؛ لِحَصْرِ هذهِ الْوَرَاثَةِ بِهِمْ دُونَ غيرِهِمْ؛ وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ إِضَافِيٌّ؛ أَيُّ: مَنْ حَصَلَتْ لَهُمْ هذهِ الصِّفَاتُ - عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5] بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] - هُمْ الْأَحْقَاءُ بِأَن يَكُونُوا الْوَارِثِينَ بِذَلِكَ لَا غيرِهِمْ، وَتَوَسَّطَ ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِتَأْكِيدِ الْقَصْرِ وَتَقْوِيَةِ الْخَبَرِ عَنْهُمْ بِذَلِكَ⁽³⁾.

معنى (أَل) في ﴿الْوَارِثُونَ﴾:

قَوْلُهُ: ﴿الْوَارِثُونَ﴾ تَحَلَّى بِ (أَل) الْعَهْدِ؛ أَيُّ: مَنْ عُرِفُوا بِمَا عُهِدَ عَنْهُمْ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هُمْ أَصْحَابُ هَذَا الْوَصْفِ الْمَعْرُوفُونَ بِهِ⁽⁴⁾.

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ مَنْ
تَحَقَّقَ بِصِفَاتِ
الْمُؤْمِنِينَ

الْمُؤْمِنُونَ
الْمُتَّصِفُونَ بِتِلْكَ
الصِّفَاتِ،
هُمْ الْوَارِثُونَ
الْحَقِيقِيُّونَ لَا
غَيْرُهُمْ

الْوَارِثُونَ هُمْ
الْمَعْرُوفُونَ بِتِلْكَ
الصِّفَاتِ

(1) الألويسي، روح المعاني: 9 / 215.

(2) الألويسي، روح المعاني: 9 / 215.

(3) الألويسي، روح المعاني: 9 / 215، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 18 / 20.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).

دلالة التعبير بـ ﴿الْوَارِثُونَ﴾ مادة وصيغة:

المؤمنون
بصفاتهم أحق
من غيرهم
بالإرث الحقيقي

الورثة: الاستحقاق الثابت؛ لأنَّ الإرث يعني أن يكون الشيء لقوم ثمَّ يصير إلى آخرين⁽¹⁾، وقوله: ﴿الْوَارِثُونَ﴾؛ أي: الأحقَّ أن يُسموا وراثًا دون مَنْ عداهم ممَّن لم يتَّصف بتلك الصفات من المؤمنين، أو من الكفار حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنَّه تعالى خلق لكلٍّ منزلًا في الجنة ومنزلًا في النار، ولذلك جاءت صيغة ﴿الْوَارِثُونَ﴾ خبرًا معرّفًا بما يُفيد تحقّق الخبر فيهم بما عُهدَ عنهم من الصفات المؤهّلة لهذه الورثة.

وكلمة ﴿الْوَارِثُونَ﴾ هي نتاج ما قبلها من الصفات لفظًا ومعنىً ونظمًا؛ فإنَّ القرآن أثبت لهم صفات تدلّ على أنَّهم ورثة نبيّنا ﷺ حقًا وصدقًا، وأثبتها لهم على جهة الإبلاغ من الثبات والاستمرار والدوام.

بلاغة الاستعارة في التعبير عن الاستحقاق بالإرث:

المؤمنون
المفلحون ورثوا
الفِرْدَوْسَ
باستحقاق

استُعيرت الورثة للاستحقاق الثابت؛ لأنَّ الإرث أقوى الأسباب لاستحقاق المال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: 72]⁽²⁾، وفي ذلك من المبالغة ما فيه؛ لأنَّ الإرث أقوى أسباب الملك⁽³⁾.

نكتة فصل قوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾:

هذا الإرث
يُتَشَوَّفُ إليه
ويترقّب له

جاء فصل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ بيانًا لما أُبهِمَ وأُجْمِلَ بحذف معمول ﴿الْوَارِثُونَ﴾؛ وذلك حتّى يترقّب السامع هذا البيان، فإذا به يظهر بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ قصدًا للتفخيم هذه الورثة، التي دونها كلُّ إرث يلهث النَّاسُ وراءه حتّى يحصلوه⁽⁴⁾.

(1) الألويسي، روح المعاني: 215/9.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/18.

(3) الألويسي، روح المعاني: 215/9.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/18.

فائدة التعبير بالاسم الموصول وصلته:

الإتيان في البيان القرآني باسم الموصول الذي شأنه أن يكون معلوماً للسامع بمضمون صلته إشارة إلى أن تعريف «الْوَارِثُونَ» تعريف العهد، كأنه قيل: الوارثون هم أصحاب هذا الوصف المعروفون به⁽¹⁾.

الوارثون
هم أصحاب
الفردوس
المعروفون به

نكتة التعبير بالفعل المضارع «يَرِثُونَ» وإعادة ذكره:

ورد التعبير بالفعل المضارع «يَرِثُونَ» لبيان الإرث الذي يرثونه بعد تشوف ورغبة ملحة لمعرفة، فيأتي الجواب بالبيان الشافي الكافي: «يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ» ويزيده بياناً، فيقول: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» وجاء الجواب بالبيان الواضح بتكرير الفعل «يَرِثُونَ»؛ قصداً لتفخيم هذه الورثة وتأكيدها لها⁽²⁾ والتي عنت صيغتها بقوله: «يَرِثُونَ» تجدد واستمرار هذا الإرث، فكأنه نبع لا ينضب معينه ولا ينفد خيرمه، والتجدد فيه ينظر إلى تجدد النعيم الذي سيعيشون فيه في جنات الآخرة.

الفردوس إرث
فخم متجدد
مستمر لأهله

معنى (أل) في الفردوس:

(أل) في قوله تعالى: «الْفِرْدَوْسَ» لام العهد؛ أي: الجنة التي ورد وصفها بأنها: "ربوة الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأحسنها"⁽³⁾، ويمكن أن تكون (أل) للاستحقاق؛ أي: استحق المؤمنون بصفاتهم السابقة الجنة المسماة بـ «الْفِرْدَوْسَ»، والحمل على الأولى تأسيس، والحمل على الثانية تأكيد؛ لأن معنى الورثة فيه معنى الاستحقاق.

الجنة المعهودة
المستحقة
بصفات خاصة
بها

نكتة فصل قوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»:

قوله تعالى: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» جملة مستأنفة مقررة لما قبلها⁽⁴⁾؛

جنة الفردوس
تعنى الخلود
الأبدي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 18.

(2) الألوسي، روح المعاني: 215 / 9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20 / 18.

(3) الزاغب، المفردات: (الفردوس).

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 51 / 4.

أي: هم في الفردوس خالدون، فبينها وبين ما قبلها كمال اتصال من نوع التوكيد المعنوي، ويمكن أن تكون حالاً مقدّرةً من فاعل ﴿يَرْتُونَ﴾؛ أي: يرتون هم الفردوس خالدون فيه، أو: وحالهم أنهم فيها خالدون، أو: مفعولُهُ⁽¹⁾، والحمل على الحال فيه إبراز تميزهم وتفوّقهم وشرفهم.

دلالة التعبير بالظرفية ﴿فِيهَا﴾:

دلّ التعبير بالظرفية ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على استحواذهم ومكثهم وإقامتهم الدائمة في الفردوس، وهذا يقتضي الخلود الدائم الذي لا مَوْتَ معه⁽²⁾، واللذة التي لا انقطاع لها، والملك الذي لا زوال له.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

تقدّمت شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ لإفادة الاختصاص؛ أي: في الفردوس لا في غيرها هم خالدون⁽³⁾؛ أي: فهي خاصّة بهم مقصورة عليهم، وفيه أيضاً لفتُ إلى عظمة وفخامة معنى الخلود في الفردوس؛ باللفّ إلى الفردوس أولاً، ثم ذكر معنى الخلود ثانياً.

دلالة التعبير بالخلود مادةً وصيغة:

قوله تعالى: ﴿خَالِدُونَ﴾ يدلُّ في أصل الكلمة على الثبات والملازمة. ومنه: جنّة الخلد، وأخلد إلى الأرض: لصق بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 176]؛ فهو من الخلد وهو البقاء⁽⁴⁾، فقوله تعالى: ﴿هُم فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: باقون في الجنّة لا يموتون، وصيغة ﴿خَالِدُونَ﴾ اسم فاعل يدلُّ مع مُبتدئه ﴿هُم﴾ على الثبات والدوام، فهم في جنّة الفردوس مُلازمون باقون.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 646.

(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 646.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 110.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).

في الفردوس إقامة دائمة لا تنقطع

اختصاص أصحاب الصفات المعلنة بالفردوس

أهل الفردوس باقون فيها لا يموتون

توجيه التشابه اللفظي بين آيات سورة المؤمنون وسورة المعارج:

في سورة المعارج ورد قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ [المعارج: 22 - 23]، ثُمَّ جَاءَ عَقِيْبَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٢٤﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٢٥ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٢٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٢٩﴾ [المعارج: 29 - 35].

تخصيص
الصلاة بالذكر
مرتبن لأهميتها،
وزيادة بيان
الأمانة في
(المؤمنون)

في هذه الآيات ورد قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢﴾ [المعارج: 22] وعقبه ذكر الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين، وزاد فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ٢٨﴾ [المعارج: 33]؛ لَأَنَّهُ وَقَعَ عَقِيْبَ قَوْلِهِ: ﴿لَأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٢٧﴾ [المعارج: 32]، وإقامة الشهادة أمانة يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها لإحياء حق؛ فهي إذن من جملة الأمانات، والسورة هناك مؤسَّسة على الإنذار بالعذاب الواقع، وقد ذكرت الأمانة في سورة المؤمنين، وخُصَّتْ هذه السورة بزيادة بيانها، كما خُصَّتْ بإعادة الصلاة حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾⁽¹⁾؛ لأن ذلك ألصق ببيان الحكم عليها بالفلاح العظيم في سياق تقديمهم كنموذج عليٍّ في أمة نبينا ﷺ.

وفي سورة (المعارج) ورد قوله تعالى في خاتمة هذه الصفات: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ٣٥﴾ [المعارج: 35]، وفي سورة (المؤمنون) خُتِمَتْ صفات المؤمنين بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ٢٤﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ؛ لأن الفريق المقابل لهم قد ورد في السورة جزاؤه المُنْفِيْد لهُلْعِهِ وَفَزَعُهُ وَإِهَانَتُهُ وَالتَّحْقِيرُ مِنْهُ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ١٨﴾

(1) الكرمانى، البرهان، ص: 240 - 241.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (العارج: 15 - 19) إلى آخره، فكان أهل الإيمان مُقَرَّبِينَ؛ ليحصل التَّنَاسُبُ بين حال الفريقين، وكمال نفي التَّسْوِيَةِ بينهما، وفي سورة المعارج ذَكَرَ ﴿جَنَّتِ﴾ (العارج: 35)، وفي سورة المؤمنين ذَكَرَ اسْمَ الْجَنَّةِ ووسطها وأفضلها، ومن معاني ﴿مُكْرَمُونَ﴾ (العارج: 35) الفوز بهذه الْجَنَّتِ على صفتها في ﴿الْفِرْدَوْسِ﴾ والخلود فيها بقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

❁ الفروق المُعْجَمِيَّة:

العَهْد والميثاق:

العَهْدُ حَفْظُ
الشَّيْءِ
ومِراعاته،
والمِثاقُ توكيدهُ

العَهْدُ: حَفْظُ الشَّيْءِ ومِراعاته حالاً بعد حالٍ، وَسَمِيَ المَوْثَقُ الَّذِي يلزِمُ مراعاته عَهْداً، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: 34)، والمِثاقُ توكيدُ العقد، من قولك: أَوْثَقْتُ الشَّيْءَ إِذَا أَحْكَمْتُمْ شَدَّهُ، والعَهْدُ يكونُ حالاً من المتعاهدين، والمِثاقُ يكونُ من أحدهما⁽¹⁾.

الْفِرْدَوْسُ ودارُ السَّلامِ ودارُ الخُلْدِ ودارُ المُقامَةِ وجَنَّةُ المَأْوَى والنَّعِيمِ والغُرَفَاتِ:

الجَنَّةُ اسْمُ عامٍّ
يضمُّ أسماءَ
عديدةً باعتبارِ
صفاتِها لذاتٍ
واحدة

الْفِرْدَوْسُ: البستانُ الَّذِي فيه الأعناب، وهو في كلام العرب: الشَّجَرُ المُلْتَفُّ، والأغلبُ عليه العِنَبُ، وحقيقتهُ أَنَّهُ البستانُ الَّذِي يجمعُ كلَّ ما يكونُ في البساتين⁽²⁾، وقد ورد أَنَّهُ: "أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومنه تُفَجَّرُ أنهارُ الْجَنَّةِ"⁽³⁾.

ودارُ السَّلامِ: سُمِّيَتْ بهذا الاسمِ لسلامتِها من كلِّ بليَّةٍ وآفةٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هو السَّلامُ، وهي دارُهُ ﷻ، وتَحِيَّةُ المؤمنين فيها سلامٌ، والملائكةُ يدخلونَ عليهم من كلِّ بابٍ بالسَّلامِ، وكلامُهم فيها سلامٌ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٣١).

(1) العسكري، الفروق، ص: 525، والرَّاعِبُ، المُفْرَدَات: (عهد) و(وثق).

(2) الرَّجَّاحُ، معاني القرآن: 315/3، والشُّوكَانِيُّ، فتح القدير: 546/3.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2790).

[الواقعة: 25 - 26]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25].

ودارُ الخلد: وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ أهلها، لا يَظعنونَ عنها، واشتقاقه من الخلد - وهو دوامُ البقاء - من قولهم: أخلدَ بالمكان: أقامَ به، قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان: 15].

ودارُ المقامة؛ أي: الدَّارُ الَّتِي يقيمُ فيها المؤمنونَ إقامةً دائمةً، لا يموتون ولا يتحوَّلون، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: 35].

وجنَّةُ المأوى: من آوى يأوي؛ أي: انضمَّ إلى المكان، قال تعالى: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 14 - 15].

وجنَّةُ عدن؛ أي: جنَّةُ إقامةٍ دائمة، يُقال: عدنَ بالمكان: إذا أقامَ به، وعدنتُ البلدَ: توطنته، وعدنتُ الإبلَ بمكان كذا: لزمته فلم تبرح منه.

وجنَّةُ النعيم: النعيمُ: النعمةُ الكثيرة، قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9]، وقال تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: 89]؛ وذلك لما في الجنَّةِ من نعيمٍ عظيمةٍ جليلةٍ كثيرةٍ متنوِّعة، لا تُعدُّ ولا تُحصى.

والغُرُفَات: جمع غُرْفَةٍ، والغُرْفَةُ: عَلِيَّةٌ مِنَ الْبِنَاءِ، وسُمِّيَتْ منازلُ الجنَّةِ غُرُفًا، قال تعالى: ﴿لِنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقال ﷺ: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ عَامِنُونَ﴾ [سبا: 37] (1).

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّاعِب، المُفردات: (فردوس، سلم، خلد، قام، أوى، عدن، نعيم، غرف)، ومجموعة من المؤلفين، للوسوعة العقدية: 71 / 5 - 72.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.

مج. 35، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-732-77-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»